

لهروب والتاريخ

## مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للاستاذ محمد سعيد العريان

- ٣٦ -

مقابلة للرسالة (٧)

كان الرافعي قلما يجلس إلى مكتبه في الحكمة إلا أن يكون له عمل ؛ فإذا لم يجد له عملاً في الحكمة انصرف لوقته إلى حيث يشاء غير مقيد بموعد من مواعيد الوظيفة . وكان يزورني أحياناً في المدرسة ليقضى معي وقتاً من الوقت أولي صبحي لبمض حاجته . وكان يشطيني على عملي ويترجم أنه لو كان في مثل هذا الجو المدرسي لوجد لنفسه كل يوم مادة تلهمه الفكر والبيان ؛ ويمجد لي كيف لا أجد في حجة هؤلاء الصغار الذين يعيشون في حقيقة الحياة ما يوقظ في نفسي معنى الشعر والحكمة والفلمفة ...

وزارتني يوماً ، وكان من تلاميذي في المدرسة طفل في العاشرة أبوه من ذوى الحول والسطان ؛ فكان يصحبه شرطياً كل يوم إلى المدرسة ويصوب به ، وكان فتى لهما ، فيه طراوة وأتونة ، وله دلال وصالف ، فاتفق أن حضر إلى لشان ما والرافعي معي ، ووقف الشرطي ينتظره على مقربة من مجلسنا ؛ ونظر الرافعي إليه وقد وقف بكلمني وهو يتثنى ويتخلع لا يكاد يتقار في موضعه ... ثم انصرف الغلام وانصرف الشرطي وراه يحمل حقيته ، والنفت الرافعي إلى يسألني : « ... وبين تلاميذك كثير من مثل هذا السَّمعون ؟ »

وكلمة « سمعون » عند الرافعي هي عمل مشترك لكل فتى جميل . وتاريخ هذا الاسم قديم ، يرجع إلى أيام صلة الرافعي بالرحوم الكاظمي الشاعر ؛ إذ كان الكاظمي له صديق من الفنان يحبه ويؤثره ويخصه بالسر ... وكان اسمه « سمعون » - قال لي الرافعي : « وكان فتى جيلاً لولاياب الفنان لحسبته أنني ... » - وراه الرافعي كثيراً في حجة الكاظمي ، فوعى اسمه وصورته ، ثم

كان اسمه عند الرافعي من بعدُ علماً على كل غلام متأنت ...  
... قلت للرافعي : « هذا ابن فلان الحاكم ، وهذا الشرطي الذي يتبعه هو من جنود أبيه ، وإن من خبره ... »  
قال الرافعي : « وهذا موضوع جديد ! »  
فهذا كان سبب إنشائه قصة « الطفولتان »

\*\*\*

وكان الرافعي يؤمن بالثيب إيماناً عميقاً لا ينفذ إليه الشك . وكان له عن الشياطين والملائكة ، وعن الوحي والالهام ، وعن تجارب الأرواح في اليقظة والنوم ، أحاديث ينكرها كثير من شباب هذا الجيل ...

... وكان له - إلى إيمانه وتدبيره - نزوات بشرية تعقبها التوبة والتندم ، فكان أكثر وقته على تربع حائم من وسوسة الشيطان ، فكان إذا صرحت أمامه امرأة فأبتمها عينيه ، أو سمع حديثاً عن ظالم فتعقبه بالحديث عن بعض شأنه ، أو ناله أحد بمساءة فردها إليه ، استأذ وحوقل ، وقال : هذا من عمل الشيطان ! ... وإذا همت نفسه بشيء تنكره للروءة ، أو دعت داعية من هواه إلى ما يتعرج منه المؤمن ، أو صرفه شأن من شئون الحياة عن واجب من واجبه ، حمل نفسه على مالا يحتمل ، وأنكر على نفسه ما همت به أو دعت إليه أو انصرفت عنه ، وذم الشيطان وتجنّب عليه الذنب . وفي مقالته « دعاية إبليس » حديث يحقق هذا المعنى

... فاني كنت ذات مساء إذ جاءه البريد برسالة من آمنة في دمشق ، وممها صورتها مهداة إليه ، تبته لواعبها وأشجانها ، وتشكو إليه أنها ... مقترة إلى رجل !  
ونظر الرافعي إلى صورة الفتاة فأطال النظر ، ووقف الشيطان بينه وبين الصورة يحاول أن يزيدا في وهمه حسناً إلى حسن ، ويرسم له خطة ...

ثم وضع الرافعي الصورة في غلافها وهو يقول : « أعود بإفك من الشيطان ... أما إنه ... »

وقال شاب في المجلس : « وهل الشيطان إلا هوى النفس ؟ »  
وقال الرافعي : « وهل تنكر ... ؟ »  
وطال الجدل ، ومضى الحديث في فنون ...

من هذا الحديث وهذه الحادثة كانت مقالة « الشيطان »

\*\*\*

وكان لولده الأستاذ سامي زوج لم يدخل بها ، وقد مرضت بذات الصدر بعد ما سماها وعقد عليها ؛ فأقامت زمناً في مصحة حلوان ؛ ثم اردت إلى طنطا لتقيم بين أوسرتها ما بقي ، وزوجها حتى بها فأتم على شئونها ، ثم جاء موعدها فدعى الراقى ليراهما فجلس إلي جانبها لحظات وهي تحتضر ، فكان له من هذا المجلس القصير ، مقالة « عروس تزف إلى قبرها ! »

كنت ليلتشد على موعدهم في القهوه ، فظلمت أنتظره ساعات ولم يخلف الراقى موعده متى مرة من قبل ، فلما طال بي الانتظار مضيت لشأني . وفي الصباح جاءني نعي الفتاة فمرقت عذره ؛ فلما كان العصر ذهبت في نفر من الأصحاب لتمزيته في دار صهره ، والتستاه فاجدناه ، وسألنا عنه فمرقنا أنه آب إلى داره بعد الجنائز لبعض شأنه ؛ ولقيته بعدها فمرقت أنه ترك الآثم والمعزى ليفرغ لكتابة مقالة قبل أن تذهب معانيه من نفسه !

يرحمه الله ! لم يكن يمر به حادث يألم له ، أو يقع له حظ يسر به إلا كان له من هذا وذلك مادة للفكر والبيان ، وكانما كل ما في الحياة من مسرات وآلام مسخرة لفنه ؛ فهي عند الناس مسرات وآلام ، وهي له أقدار مقدورة ليبدع بها ما يبدع في تصوير الحياة على طبيعتها وفي شتى ألوانها ، ليزيد بها في البيان العربي ثروة تبقى على المصور ، وهو إخلاص للفن لم أعرفه في أحد فقير الراقى !

\*\*\*

وإذ ذكرت السبب الذي دعا الراقى إلى إنشاء مقالة « عروس تزف إلى قبرها ! » أراني مسوقاً إلى ذكر حديث بيني وبين الراقى يتصل بهذا الموضوع ، وإنه ليدل على خلق الراقى وطبعه ، وهو بسبب مما سمعته فيه من قبل « فلسفة الرضا » لم يكن لأحد رأي في خطبة هذه العروس إلى سامي ، ولكنه هو خطبها لنفسه ، وكان يحبها ويرجوها لنفسه من زمان ، ولم يكن بينهما حجاب ، فإنها بنت خاله ؛ فلما أجمع أمره على خطبتها بعد ما تخرج وصار له مرتب يكفيه (١) ، ذهب بمرض

(١) كان سامي سيداً في كلية الزراعة قبل أن يذهب في سنة الجامعة إلى أمريكا

أمره على والده ، فعارضه فيما ذهب إليه لسبب سببه ، ولكنه مع اعتداده برأيه في هذه الممارسة ترك لهواه ولم يفرض عليه رأيه ؛ إذ كان يرى من حق ولده أن يختار زوجته لنفسه ، فليس له عليه في هذا الشأن إلا أن يبدل له النصيح ، ثم يدع له الخيرة في أمره

وخطب سامي فتاته ، وعقد عقده . وكان حموه يعمل في مال فأكثه الأزيمة ، وقدر عليه رزقه بعد سعة ؛ ثم مرضت الفتاة مرضها ، فأكرمها زوجها وقام على شئونها ، وأتفق ما أتفق في طلبها وعلاجها سنتين أو يزيد ، بين طنطا وحلوان !

وتداعت فنون الحديث يوماً بيني وبين الراقى حتى جاء ذكر سامي وزوجته ، وكانت ما تزال في مصحة حلوان ؛ فقال لي الراقى : « أنظر ! إنها حكمة الله فيما يجري به القدر ! ضلّت البشرية إن هي حاولت النفاذ إلى النيب لتتحكم في أقدار الناس .. ليس للإنسان خيرة من أمره ، ولكنه قدر مقدور منذ الأزل يربط أسباباً بأسباب ، ويجري بالحياة وحدة متأسكة ، فإيجري هنا هو بسبب مما يجري هناك ، فلا انفصال لشيء منها عن شيء .. ترى مننا كان يتفق على هذه السكينة ليطلب لها من حائرها ولم تكن الأقدار قد أحكمت نظامها وكان سامي هو زوجها ؟ هل كان إصراره على الزواج منها بعد ما قدمت له من الرأي والنصيحة إلا لأنه في تدبير القدر مرجو لهذا الواجب من بعد . لقد كنت مستيقناً من أول يوم أن من وراء هذا الزواج حكمة خافية ، وإني اليوم وقد انكشف لي هذا السر العجيب في حكمته البالغة لأشعر بكثير من الرضى إلى ما كان ! »

\*\*\*

ثم كتب مقالة « بين خروفين »

وهي تمت بسبب إلى مقالة « حديث قطين » ؛ وفيها حديث من ولده عبد الرحمن ، وهو أسفر بنيه ؛ وكان الراقى يرجوه ليكون من أهل الأدب ؛ فإزال يستحبه ويحمله على الدأب والثابرة ليكون كما يرجو أبوه ، ويحمله بذلك الرجاء على ما لا يحتمل . وكان (الايحاء) وسيلة الراقى إلى تشجيعه وتحميمه إلى العمل ؛ ويبدو مثل من هذا الإيحاء فيما تحدث به الراقى عنه في أول هذا المقال

تحرير الألفاظ

## الروعة والطرب

للاستاذ محمد شوقي أمين

- تقول اللغة في مشهور ما تقول : طرب الرجل : فرح ، وطرب : حزن. وتقول أيضاً : راعه الأمر أعجبه، وراعه: أنزعه والقيام في الأذهان أن لفظي الروعة والطرب من باب الأضداد المتعارف شأنها في خصائص الفصحى ؛ على حين أنهما في الحق لا يدلان على واحد من الضدين بينه حقيقة ووضعا ، فحقيقتها ووضعها للموجان والتضرب لاغير . فالروعة والطرب يدلان كلاهما على اهتزاز النفس وتحركها ، وهيج الخاطر وتأثره ؛ وإنما يدل كل منهما على معنى الفرح والحزن دلالة مجازية بين السياق نص موقعها من الإبانة والافهام ، وتوازير القرائن المقصود لداته منها في أسلوب الكلام

- وربما كان الصوت الرخيم شبيه ما نحن بصدده من هذين اللفظين ، فإن الدلالة المنوية للصوت الرخيم على معنى الحزن والفرح ، أكثر شيئا وفاقا لدلالة لفظي الروعة والطرب على ذينك المعنيين متى ذكر جمال الصوت وورقته ، انصرف الدهن أول ما ينصرف إلى الفرح ؛ فالثناء فيما يبدو للناس على وجه عام ، يريد السرة ، ووافد الابتهاج . مع أنه في حقيقة الأمر يستنبث الشجوة ، كما يستنير النبطة ؛ ويرتاح له الشعور الحزين ، كما يأنس به البال الرقي . فهو منتج الشجيين والخليلين على سواء بينهما .
- وكم أنبط الفناء من عبرات حرار لم تكن تبض قطراتها لولا رشاء النغم الحنون !

تلك هي النائمة المستأجرة ، تيمث صوتها المنحزّن في مناحات النساء ، قاذبا وقود تتضرم به بجامر الزفرات ، ورنين تستيقظ به كوامن الأحزان . فتمضي للنساء وقد حضرنهن المهموم ييكن شجنوهن !

وهذا ابن سريج ظل صدر شبابه بنوح . وقد أنسيت : أين ؟ أنى مكة أم في المدينة ؟ وحيثما كان فقد نوح دهرأ وهو ورفاه

وكان الرافعي منبياً بمستقبل أولاده عناية كبيرة ، فكان يحملهم على العمل بوسائل شتى . وكثيراً ما كان يرسم لهم الخطة للحصول والمذاكرة ، وقد وجدت بين أوراقه حديثاً له إلى ولده إبراهيم ينصحه ويرسم له منهجاً ليهي نفسه للامتحان ، لو أنه أتبعه لكان اليوم غير ما هو !

ومن أجل أولاده أنشأ كثيراً من المقالات عن عيوب الامتحانات لمناسبات مختلفة كان ينشرها في المقلم ؛ وكانت له طلبات ومقترحات إلى وزارة المعارف أجابت أكثرها ولم ينتفع بها أحد من ولده ومن أجلهم أنشأها !

أنشأ هذه المقالة قبيل عيد الأنحى ، وكان اشترى خروفين للتعزية أودعهما فوق سطح المدار إلى ميعاد ؛ فأنزعه إلى كتابة هذا المقال إلا هذان الخروفان ، ثم حاجته إلى أن يقدم إلى ولده نموذجاً في الإنشاء بينه على بعض واجبه المدرسي .

\*\*\*

وكان للرافعي رأي فيما تنقل الصحف من أخبار تركيا نفسه مقالة « تاريخ يتكلم »

وقد دعاه إلى إنشاء هذا المقال أخبار تناقلتها الصحف في ذلك الوقت عن أحداث تجرى في تركيا ، رأى فيها مشابه من حوادث سبقتها في مصر قبل ذلك بألف سنة في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي

وفي أحيان كثيرة كانت تنور نفس الرافعي لما يسمع من أخبار تركيا فيهم أن يكتب ثم يئمه من ذلك خشيته أن يكون فيما يكتبه شيء يقفه موقف السئول عن غلطة نمكر صفاء ما بين الدولتين ؛ ثم جاءت مناسبة هذه المقالة فأنشأها وجعل الحديث فيها عن الحاكم بأمر الله وهو يعنى رئيس الجمهورية التركية ؛ وكانت هذه التسمية وسيلته ليتهرب من التبعة السياسية ، ومنها كان النموض في كثير من معانيه ؛ فمن شاء فليعد إلى هذا المقال ليقرأه وقد عرف داعيه ، فلمه لا يجد فيه غموضاً من بعد

ومن أجل هذا السبب ولعلنا المقصد نفسه كان مقالة « كفر البداية » التي أنشأ على أسلوب كليل ودمنة بعد ذلك بأشهر .

محمد سعيد العريانه

« سيدى بشر »